القوة الحربية لمصر والشام

فى عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٢ —

كان عدد الجيش المصرى فى ذلك العهد عظيماً ضخماً ؛ ففى أيام الفائز الفاطمى استعرضت عساكر القاهرة ، فكانت نحو خمسين ألف مقاتل ، وكان بمراكبه عشر مراكب مشحونة بالرجال والسلاح ، وهذا مع تلاشى أمر الخلفاء الفاطميين ، وضعف شوكتهم (١) . قال المقريزى فى الخطط (حـ ١ ص ١٣٨) ورأيت بخط الأسعد بن مهذب بن زكريا بن مماتى الكاتب المصرى : سألت القاضى الفاضل عبد الرحيم : كم كانت عدة العساكر فى عرض ديوان الجيش لما كان سيدنا يتولى ذلك فى أيام رزيك بن الصالح ؟ فقال أربعين ألف فارس ونيفاً وثلاثين ألف راجل من السودان ، مما يدل على أن مصر كان فى استطاعتها رد الصليبيين بجيوشها ، لولا ظروف أخرى عرضناها فيما مضى .

فلما انقضت الدولة الفاطمية واستولى على الأمر صلاح الدين عنى بأمر الجيش عناية كبرى ليحقق أهدافه ومشروعاته . قال القاضى (١) الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة فى ثامن المحرر (أى قبل القضاء على الخلافة الفاطمية بيوم واحد ، ولعل لهذا العرض مغزى سياسياً آخر يرمى إليه صلاح الدين) خرجت الأوامر العلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها ، بعد أن أنذر حاضرها وغائبها وتوافى وصولها ، وتكامل سلاحها وخيولها ، فحضر فى هذا اليوم جموع تشهد كل من علا سنه أن ملكاً من ملوك الإسلام لم يحز مثلها ؛ ولم يتكامل اجتياز العساكر موكباً بعد موكب ، وطلباً بعد طلب (والطلب بلغة الترك هو الأمر المقدم الذى له علم معقود وبرق مضروب وعدة من مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً) إلى أن انقضى النهار ، ودخل الليل ، وعاد ولم يكمل عرضهم وبلغت عدة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس ، فلما مات انفرقت من بعده ، ولم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز فيما سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة ، إلا أن فيهم من له عشرة أتباع وفيهم من له عشرون وفيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تبع لرجل واحد من الجند ؛ فكانوا إذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف (٢) .

(١) ابن إياس حـ ١ ص ٦٧

(٢) خطط المقريزى حـ ١ ص ١٣٩

(١) المرجع السابق ص ١٥٢

بالميسر ... ومرت سنة أخرى ، فإذا ميراثك كله — وهو عشر فدادين خصب — قد تبدد وتناثر !

وهكذا — يا رفيق — لم يبق لك سوى زاتيك الحكومى ، وأنت بين أدواء ثلاثة : الخمر والميسر والزوجة ... وسوّل لك الشيطان — مرة أخرى — فركبك الدين والدائن معاً !

وقعدت صحتك ومالك ، فقرأيت فى نظر زوجك شبحاً لا تستطيع أن تكون رجلا ، فأخذت تنظر إليك شزراً وتحدثك فى احتقار ، تمنين قولك ، وتزدرى رأيك ، وتسخر من جهلك ، وتتطاول عليك تثلبك وتثلب أهلك ... ثم ... ثم طارت منك مع واحد من ذوى الثراء ، لتتركك على فراش المرض وحيداً ، تلتهمك هموم المرض والدين !

والآن ... هل تذكر تاريخك ؟ لقد عجمتك الخطوب ، وراضك الزمن ، ولكن بعد أن توزعتك الأحداث ، وعصفت بك الأحزان ، ولزمك المرض والفقر ؛ فأنت هيكل بنهادى فى مزق بالية ، تقتحمك الأعين ، وتعافك الأبصار !

يا عجباً ، لقد كنت منذ سنوات تدل بمالك وصحتك وعقلك ، فتعالى على أهلك وأقاربك . والآن بين ضربك الفقر والمرض والذهول ، ذهبت تستجدى عطفهم ولكن ...

ونظرت الأعين فى عجب ، وابتسمت للشقاء فى سخرية ، وتقلّبت القلوب فى صمت ، وقال قائلهم : « ليت كل ذى عقل يؤمن بأن فى السماء عدلا يهبط إلى الأرض فى غير انقطاع ! فما أشد حمقك وغباوتك يا من تتناسى عدل السماء ! »

ليت شعرى هل كان أبوك يستنزل سخط السماء على ابنه العاق حين كان يتمتم بكلمات لم تسمعها أذن ؟ !

كامل محمود حبيب

واستكثر الصالح أيوب من شراء المماليك حتى كان عددهم فى معركة المنصورة عشرة آلاف (١) . ولما قامت دولة المماليك الأتراك حذوا حذو مواليهم بنى أيوب ، وبلغت عدة جند بيبرس اثنى عشر ألفاً ، ثلثها بمصر ، وثلثها بدمشق ، وثلثها بحلب ، فإذا غزا خرج معه أربعة آلاف يقال لهم جيش الزحف ، فإن احتاج استدعى أربعة أخرى ، فإن اشتد به الأمر استدعى الثالثة (٢) . وكان فى خدمة قلاوون من المماليك اثنا عشر ألفاً كذلك (٣) ، وكذلك كانت عدة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاوون (٤)

والظاهر أن ذلك كان عدة الجيش النظامى ، وفى غير وقت النفير العام . أما الجيش فى الحملات الحربية ، وعند النفير العام ، فإن عدده ما كان يقف عند هذا الحد ، فكان جيش قلاوون فى معركة حمص التى هزم فيها المغول ببلغ خمسين ألف مقاتل (٥) ؛ وكان فى الحملة التى بعث بها قلاوون إلى بلاد النوبة سنة ٦٨٨ أربعين ألف راجل . قال لين بول (٦) : احتفظ بيبرس باثنى عشر ألف جندى نظامى دائم ، وهذا بخلاف الاحتياطى من العرب والمصريين ، وما تقضى به الظروف من تجنيد طبقات من المجندين. وفى المعارك الكبرى كان المتطوعون يقدمون من كل فج حتى لتزيد عددهم على الجند المقيدين . قال صاحب النجوم الزاهرة (ج ٨ ص ٥) : اجتمع مع الأشرف خليل على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة .

وهذا الجيش الضخم هو الذى استطاع بمثابرته أن يرد جحافل التتار ، وأن يطرد الفرنج من الديار .

ولا غرابة أن تبلغ العناية بأمر الجيش ذروتها فى ذلك العهد الذى هاجم الغرب فيه الشرق ، ووقفت فيه مصر والشام تدافعان عن كيانهما الصليبيين والتتار . وإذا كانت العناية بأمر الجيش فى آخر عهد الفاطميين قد وجهها الوزراء إلى ناحية الاحتفاظ بمراكزهم ، فإن نور الدين محمود بن زنكى ، وأمراء الفاطميات السورية فى عهده قد عنوا بجيوشهم وأبلوا البلاء الحسن فى حرب الصليبيين . ولو أن مصر والشام كانتا متحدتين فى يد قوية ، ما استطاع الصليبيون تثبيت أقدامهم فى الشام . وفى عهد صلاح الدين عنى به عناية فائقة وارتقى فن الحرب فى عهده وعهد نور الدين من قبله ، وما كانا يغفلان يوماً من تقوية جسمهما بالرياضة البدنية . وفى عهد الصالح أيوب بنى المماليك بجزيرة الروضة قلعة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية والأقوات ، وأسكنهم فيها ، وجعل حول تلك القلعة شوانى حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج إذا طرقوا البلاد(١) . وعنى الظاهر بيبرس بالجيش وإعداده وتمرينه على الأعمال الحربية ، وكان ذلك من أهم ما شغله طوال أيام حكمه ، حتى اتسم عصره بسمة الجد وشاعت فيه روح الجندية ، فكان عندما يثوب من الحرب لا يدع جيشه للراحة والسأم بل يدربه على أعمال الحرب ، ويستعرضه فى الحين بعد الحين ليرى أينقصه شىء ؟ وكثيراً ما اشترك هو وابنه الملك السعيد فى مناورات الجيش وكان موضع الإعجاب والتقدير ، وعنى بيبرس بالحياة الخلقية لجنده فحرم عليهم الفسق وشرب الخمر. ونودى يوم عيد الفطر وبيبرس والجند على باب صفد : من شرب خمرا أو جلبها شنق(٢) ولم تقل العناية بالجيش فى عهد قلاوون التى كان يخرج غالب أوقاته فى مواعيد الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليهم ، ويتفقد لحمهم ، ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار وتهرها ، ورحل بهما منه ما يكرهان . وألزم المماليك الإقامة بقلعة الجبل لا يبرحونها (٣) ، ولكن يظهر أنه لم يكن كبيبرس فى شدة تزمته ، بل أباح لجنده اللهو البرىء ، فبينما كان الغناء كالمحرم فى عهد بيبرس إذا بنا نرى طائفة من الجند قادمة للقتال على رءوسهم البيض مقلدين سيوفهم وبأيديهم الرماح وأمامهم السيد تميل على الركائب وترقص بتراقص المهارى ، وبأيديهم الجنائب ووراءهم الطماثن والحمول ، ومعهم مغنية تعرف بالخضرمية سائرة فى الهودج وهى تغنى :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... ليالى لا تينا جذام وحميرا
ولما لقينا عصبة تغلبية ... يقودون جرداً للمنية ضمرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

وفى عهد ابنه الأشرف عنى بالجيش ، فيضرب الفرنج الضربة القاضية ، وسمح لمماليكه بمبارحة القلعة نهاراً على ألا يبيتوا فى غيرها

(يتبع)

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

(١) السلوك جـ ١ ص ٦٣٨
(٢) لين بول ص ٢٣٠ (٤) مورير ص ٦
(٣) خطط المقريزى جـ ١ ص ١٠٣
(٥) مورير ص ٥٢ (٦) ص ٢٧٣

(١) ابن إياس جـ ١ ص ٨٣ (٢) السلوك جـ ١ ص ٥٤٦ .
(٣) خطط المقريزى جـ ٣ ص ٤٣٦ .